العلاقات الحضارية بين الصحراء الكبرى وشمال أفريقيا خلال عصور ماقبل التاريخ

الاستاذ الدكتور مصطفى أعشيى*

يحاول هذا الموضوع التطرق للعلاقات التى كانت موجودة أو سائدة بين الصحراء الكبرى وشمال إفريقيا خلال عصور ما قبل التاريخ ، باعتبارهما منطقتين جغرافيتين تكملان بعضهما ، انطلاقا من متابعة التغيرات المناخية التى عرفتها المنطقتان بالدرجة الأولى والتحركات البشرية التى صاحبتها ، والمخلفات الأثرية بالدرجة الثانية ، التى تبرز التأثير المتبادل بين المنطقتين .

ولإبراز هذه العلاقات نقترح التعرض من خلال هذا العرض لمناقشة ثلاث نقط محورية :

١- الصحراء الكبرى وتطورها المناخى وخاصة خلال الأدوار الجليدية .

٢- شمال إفريقيا وسماتها الجغرافية الأساسية .

٣- بعض نماذج ومظاهر العلاقات بين المنطقتين وتطورها خلال عصور ما قبل التاريخ انطلاقا من البدايات الأولى وإلى غاية توصل الانسان إلى الزراعة وتربية الماشية .

١- الصحراء الكبرى وتطورها المناخى .

تعتبر الصحراء الكبرى فى أفريقيا حاليا منطقة قاحلة مقفرة تغطى جزءا كبيرا من وسط إفريقيا وشمالها وتكاد تمثل حاجزا طبيعيا بين شمال إفريقيا ووسطها . وتمتد الصحراء الكبرى من الغرب إلى الشرق أى من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر ، على طول ٣٠٠٠ كلم . ومن الشمال إلى الجنوب أى من البحر الأبيض المتوسط إلى بداية المناطق الاستوائية ، على طول ١٥٠٠ كلم .

(*) استاذ التاريخ القديم - معهد الدراسات الأفريقية جامعة الملك الحسن الثاني - الدار البيضاء - المغرب .

ويحدد الباحث ميلبورن (M. MILBURN) مساحتها فى حوالى تسعة ملايين كلم^{2} (١) بينما يحددها العالم هوكو (HUGOT) فى أربعة ملايين ونصف مليون كلم^{2}(٢).

والصحراء تعبير نباتى ، تعنى افتقار الإقليم للحياة النباتية والحيوانية ولكن هذا لا يعنى الفقر التام ، إذ مما لاشك فيه أن هناك حياة نباتية وحيوانية فى الصحراء .

وعلى الرغم من أن الصحراء الكبرى تعد من أكبر الصحارى فى العالم ، إلا أنها لم تكن على ما هى عليه الآن ، إذ كانت إلى غاية حوالى ٦٠٠٠ ق.م وربما إلى بعد ذلك ، عبارة عن أرض تعرف الأمطار الكافية وتعج بالحياة النباتية والحيوانية والبشرية .

ولهذا فقد انكب العديد من الباحثين على دراسة هذا التحول المناخى الذى عرفه العالم بما فيه الصحراء وشمال إفريقيا ، منهم : كاطون - طومسيون، وكوتيى وهوكو ، ومونود ، ولوط ، وموري ، وماكبرنى ، وكابو ، وبالو ، وأليمين ، ودوبويكودو ، وكامبس ، وڤوفرى وغيرهم ، لرصد مراحل هذا التطور المناخى والحقائق المرتبطة به . كما أن أبحاثهم ودراساتهم وتساؤلاتهم ، فتحت آفاقاً جديدة لمتابعة التأثيرات المتبادلة بين الصحراء وشمال إفريقيا وتحديد نوعية العلاقات التى كانت قائمة بين المنطقتين .

ومن المسلم به أن قضية العلاقات والتأثيرات المتبادلة بين شمال إفريقيا والصحراء . كانت ترتبط ارتباطا كبيرا بالتغيرات المناخية التى كانت تعتبر العامل المتحكم فى الاستقرارات من ناحية ، وفى التحركات البشرية من ناحية أخرى ، منذ بداية ظهور الانسان فى أواخر حقبة البليوسين وبداية حقبة البلايستوسين .

---

(1) M. MILBURN. Les chars préhistoriques du Sahara, sur quelques inscriptions énigmatiques des confins Préhistoriques Nigero- Fezzanis, le Saharien, 91,1984.

(٢) هـ . ج . هوكو ، الصحراء فى ماقبل التاريخ ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الأول ، نشر جون أفريك واليونسكو ص ص . ٥٩١-٦١٤ ، ص ٥٩١ .

كما أنه مما لاشك فيه أن أقل زيادة فى الجفاف فى مساحات الصحراء الكبرى ، كانت تسبب فى القيام بتحركات ونزوحات بشرية نحو المناطق التى تتوفر فيها سبل الحياة ، وخاصة الماء والأشجار المثمرة والحيوانات ، مما يتسبب فى إحداث تغييرات اجتماعية وسياسية بعيدة المدى فى الجهات التى يتم الانتقال إليها . ونزوح الناس وهجرتهم من الصحراء ، تتسبب فى زيادة قحولتها وتمدد فى إطالة عمر المراحل الجافة ، إلى حد أن تصبح طرق القوافل والمسالك القديمة غير مجدية ، بينما فى المقابل يساهمون فى كتابة فصول جديدة يضيفونها إلى المناطق التى استقروا بها حديثا .

١ - ١ - التغييرات المناخية والأدوار الجليدية :

تثبت الابحاث العلمية أن الكتل الجليدية القارية الموجودة فى القطبين الشمالى والجنوبى والتى تبلغ مساحتها حاليا حوالى خمسة عشر مليون كلم٢ ، تضخم حجمها بدرجة كبيرة ، فى عصور ماقبل التاريخ ولاسيما خلال الأدوار الجليدية ، فزحفت على مساحات شاسعة من الأراضى وغطت أجزاء هامة من قارتى أوربا وأمريكا .

وقد تكررت هذه الظاهرة ، على الأقل ، أربع مرات خلال المليون سنة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ وهى المعروفة بالأدوار الجليدية :

- دور جليد كونز (Günz) مابين ٦٠٠٠٠٠ و ٥٤٠٠٠٠ سنة ق . م
- دور جليد مندل (Mindel) مابين ٤٨٠٠٠٠ و ٤٣٠٠٠٠ سنة ق . م
- دور جليد ريس (Riss) مابين ٢٤٠٠٠٠ و ١٨٠٠٠٠ سنة ق . م
- دور جليد فورم (Würm) مابين ١٢٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠ سنة ق . م[٣].

---

(٣) مصطفي أعشيي ، المدخل لتاريخ الحضارة، مطبعة الساحل، الرباط، ١٩٨٠، ص . ٥ (= مصطفي أعشيي ، المدخل) .

وقد كان يفصل بين كل دور جليدى وآخر فترات بين جليدية دفيئة هى التى تعود فيها الصحراء إلى حالة الجفاف .

ونذكر على سبيل المثال أنه في حدود ٢٠٠٠٠ سنة ق.م بلغت كتل الجليد أقصى زحفها إذ بلغت المساحة المغطاة حوالى اثنين وأربعين مليون كلم ٢، أى ما يقارب ثلاث مرات المساحة التى يغطيها الجليد الآن .

وفى الفترات التى ترتفع فيها درجة الحرارة تتقلص كتل الجليد بشكل كبير نتيجة لذوبان أجزاء منها وقد كان لزحف الجليد وتراجعه تأثير ات هامة على الوسط الطبيعى منها :

١ - ١ - ١ انخفاض درجات الحرارة : عم البرد القارس والرياح الثلجية شمال أوربا وشمال أمريكا وتواجدت فيها الأصناف الحيوانية المعروفة بتأقلمها مع المناخ الجليدى كالماموث والكركدن ذى الغطاء الصوفى والرنة والدب . كما عاشت فى المناطق المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط أصناف من الطيور القطبية كالبطريق .

١ - ١ - ٢ انخفاض مستوى البحار : لم تعد الدورة المائيةتستكمل دورتها بسبب البرد القارس المصاحب لانخفاض درجة الحرارة . مما تسبب فى عدم ذوبان الجليد. وقد حدثت هذه العملية عدة مرات تبعاً للدورات الجليدية ، واستمرت آلاف السنين ، مما أدى إلى تراجع كبير فى مستوى البحار والمحيطات تجاوز أحياناً أكثر من مائة كلم . وعلى سبيل المثال فقط فإن مدينتى قابس وصفاقس التونسيتين الواقعتين الآن على الشاطىء مباشرة ، كانتا تبعدان عنه بحوالى ١٠٠ كلم ما بين ١٢٠٠٠و ١٥٠٠٠ سنة ق.م. كما يعتقد أنه هناك برزخ يربط بين أوربا وإفريقيا عن طريق صقلية عبر الوطن القبلى فى تونس ، وعن طريق مضيق جبل طارق فى المغرب .

١ - ١ - ٣ غمر البحار لليابسة : عند ذوبان الجليد وتراجع جزء منه يرتفع منسوب الماء فى البحار والمحيطات فتغمر أجزاء شاسعة من اليابسة وقد حدثت هذه العملية أربع مرات على الأقل ودامت آلاف السنين ، وتركت شواهد مادية دالة على ذلك.

وتفيد الأبحاث المناخية أن هناك علاقة وطيدة بين زحف الجليد فى أوربا وأمريكا وتنقل المرتفعات الجوية التى تتحكم فى مناخ المناطق المداريةوشبه المدارية ، مما يؤكد أن مناخ الصحراء خلال عصور ما قبل التاريخ مر بفترات رطبة ممطرة تتخللها فترات من الجفاف والجدب .

١ - ١ - ٤ شواهد التغيرات : ومن الشواهد التى تؤكد هذه التغيرات التى عرفتها الصحراء ، الفرشات والمسطحات المائية كالبحيرات ومجارى الأنهار والآثار الحضارية للإنسان فى الصحراء .

١ - ١ - ٤ - ١ ففيما يتعلق بالفرشات والمسطحات الضخمة بالصحراء ، فمن المعروف أنه يتواجد فى شمال الصحراء فرشات مائية ضخمة تغذى العيون العديدة التى تسقى واحات تونس والجزائر وليبيا ، وهى عبارة عن خزانات طبيعية تجمعت فيها كميات هائلة من المياه فى الفترات الرطبة والممطرة والتى عرفتها الصحراء خلال عصور ما قبل التاريخ والموازية للأدوار الجليدية الأوربية.

وتدل الدراسات الحديثة على أن ماء هذه الموائد المائية تضخم نتيجة ارتفاع مستوى الأمطار الساقطة على الصحراء ، فارتفع مستواها وأصبح قريباً من سطح الأرض . ويؤكد تحول شط الجريد فى جنوب تونس ،، مثلا ، إلى بحيرة شاسعة كانت تعيش على ضفافها مجموعات بشرية عديدة تتغذى على صيد الحيوانات . وتفيد التحاليل المعملية أن شط الجريد الواقع جنوب تونس كان قد تحول إلى بحيرة فى مناسبتين : الأولى حوالى ١٤٠٠٠٠ سنة ق. م أى

بعد نهاية دور جليد ريس وبداية الفترة الفاصلة بين دور جليد ريس ودور جليد ڤورم . والثانية حوالى ٩٠٠٠ سنة ق. م ، أى خلال الربع الأولى من دور جليد ڤورم .

١ - ١ -٤ - ٢ وبالنسبة للبحيرات واتساع مجالها وتقلصه حسب التغيرات المناخية ، فتعتبر بحيرة التشاد من أضخم المسطحات المائية فى أفريقيا . إذ يمكن اعتبارها بحرا داخليا ضخما ، يتراوح عمقها بين ٣و٧ أمتار حسب الفصول وحسب مستوى التساقطات . بينما خلال عصور ما قبل التاريخ ، عرفت هذه البحيرة تضخما فى حجمها ، وذلك فيما بين ٤٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ سنة ق. م ، أى خلال المرحلة الأخيرة من دور جليد ڤورم ؛ بلغ ست عشرة مرة المساحة الحالية ، صاحبه تجاوز العمق إلى خمسين متراً . إلا أنه خلال الفترة المتراوحة ما بين ٢٠٠٠٠و١٠٠٠٠ سنة ق. م بدأت مساحتها تتقلص بشكل ملحوظ نتيجة حلول فترة من الجفاف ، فكادت تضمحل وأصبح سطحها ميدانا شاسعاً تنتقل فوقه كثبان الرمال . ولاتزال مساحتها تتراجع إلى يومنا هذا .

١ - ١ - ٤ - ٣ وإذا عدنا إلى تأثير تغير المناخ على مجارى الأنهار ،، فنلاحظ أنه خلال توفر المناخ المطير فى الصحراء ، تتسع مجارى الأنهار نتيجة لارتفاع منسوب المياه فتعم الخصوبة وتنتشر الخضرة ؛ ولكن إذا حل الجفاف يتقلص منسوب الماء فى المجارى وتقل قوة سيره فيتحول إلى عدة مجارى ، وإلى مستنقعات لاتقوى على التحرك . وتستقر الكثبان الرملية بالتدريج فى مجراه إلى أن توقف مسيرته كما حدث لعدد من الأنهار فى الصحراء التى نلاحظ أوديتها الواسعة ومجاريها الجافة .

١ - ١ - ٤ - ٤ أما الآثار الحضارية الشاهدة على رطوبة مناخ الصحراء خلال الأدوار الجليدية والتى استوطنها الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ ، وترك فيها عددا هاما من الآثار المتمثلة على الخصوص ، فى الأدوات الحجرية

ومواطن إقامته وبقايا حيوانية وبشرية التى توجد الآن فى مناطق جافة وقاحلة . فقد عثر فى هذه المواطن على مجموعات من عظام الحيوانات كالفهد ، والفيل ، والكركدن والتمساح ، وأسماك البحيرات والأنهار ، وأفراس النهر ، والزرافات؛ هذا علاوة على الحلزون المائى الذى كان يعيش فى المسطحات المائية التى كانت تتواجد فى الصحراء . وفى موقع تيهوذين بجنوب الصحراء الجزائرية التى زارها كوتيى (E.FGautier) وريكاس (Reygasse) سنة ١٩٣٢ تم العثور على صناعة حجرية مختلطة بحيوانات الكركدن ، والفيل ، وفرس البحر ، والبقريات والجاموس ، والخنزير ذى القرنين وحمار الوحش ، والتمساح ، والغزال الخ ..

وبجانب هذه البقايا الحيوانية عثر فى مناطق متعددة من الصحراء على مجموعات هامة من الرسوم والنقوش الصخرية التى تمثل مشاهد من الحياة اليومية لإنسان تلك المرحلة بجانب قطعان من الحيوانات المتنوعة ، بعضها انقرض ، وبعضها انتقل إلى مكان آخر والبعض الآخر لايزال موجودا .

كل هذه المعطيات والشواهد تعبر بصفة واضحة وجلية عن وضع مناخى ممطر ورطب مناسب لحياة الانسان والحيوان والنبات ، يختلف تماما عن المناخ الحالى ، مما دفع ببعض الباحثين إلى الاعتقاد فى أن الجذور الأولى لحضارة الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ فى شمال إفريقيا بوجه عام ، ترجع فى الحقيقة إلى جهود الانسان الصحراوى فى ذلك الوقت .

كيف ذلك ؟

إن التغيرات المناخية التى عرفتها الصحراء الكبرى والتى يبلغ عددها لحد الآن أربعة ، تفصل بينها دورات جافة وحارة ، وإنه خلال هذه التغيرات التى عرفتها المليون سنة الأخيرة من حياة الإنسان ، الذى عاش فى الصحراء ، كان مضطرا لمغادرتها والنزوح إلى المناطق المجاورة ، تبعاً للظروف المناخية ، بحثا عن الكلأ والمرعى والماء .

وانتقاله إلى المناطق الجديدة وخاصة شمال إفريقيا كان يتم بانضباع بالجسد والفكر والحضارة . إذ أنه ينتقل بكل تُراثه وتراكماته الحضارية التى يستعين بها للتأقلم مع الظروف الطبيعية الجديدة ، وهذا ما ساعده على الإسهام فى التطور الحضارى للمنطقة الجديدة التى نزح إليها . وبهذه الطريقة فإن النازح الجديد من الصحراء يكون قد ساهم فى تطور المنطقة الجديدة التى استقر بها .

وعملية النزوح هذه تكون قد تمت على الأقل أربع مرات ، واتجهت إلى المناطق التى تتوفر على الماء والقوت والكلإ وهذا ما جعل بعض الباحثين ، كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، يميلون إلى القول ، بأن الصحراء كان لها دور كبير فى تعمير شمال إفريقيا بالإنسان أولا ، وبالتطورات الحضارية التى تلت هذا التعمير والتى عرفتها المنطقة ثانيا ، والمتمثلة خاصة فى الصناعات الحجرية التى صنعها واستعملها ، وفى تربية الماشية والزراعة التى توصل إليها .

٢- شمال إفريقيا وسماتها الجغرافية الأساسية :

ونعنى بها المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسى غربا إلى البحر الأحمر شرقا ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا . وهى تبدو على شكل جزيرة أو شبه جزيرة إذا استثنينا ممر شبه جزيرة سيناء فى أقصى الشمال الشرقى .

وهى السمة التى جعلت إنسان هذه المنطقة الواسعة يعيش ، على ما يبدو، فى مجال معين شبه معزول ، تفاعل مع بيئة هذا المجال دون ضغوط خارجية كبيرة مما أدى إلى تكوين عقلية متميزة خاصة بهذه المنطقة .

وتتميز هذه المنطقة بثلاثة عناصر أساسية ساهمت فى تكوين خلفية ذهنية متشابهة بين أبناء هذه المنطقة منها :

٢ - ١ وجود سلسلة جبال الأطلس التى تمتد على طول شمال إفريقيا بمثابة الهيكل العظمى لها . وعلى الرغم من أن هذه الجبال قد تبدو ، فى بعض الأحيان ، كحواجز ، إلا أنها تمثل أحد العناصر الأساسية لشخصية هذه المنطقة، والمؤثرة فيها باعتبارها المصدر الأساسى للمياه .

٢ - ٢ الصحراء الكبرى التى تمتد جنوبا تعتبر استمرار لشمال إفريقيا وجزءا منها ، بل وعمقها الاستراتيجى . لعبت ، عبر مختلف مراحل التاريخ ، دورا كبيراً فى تهىء بعض الظروف الملائمة لتطور شمال إفريقيا وتوحيدها . وكان للتغيرات المناخية التى عرفتها الصحراء أثر كبير فى تكوين العنصر البشرى لشمال إفريقيا . وإذ كانت المناطق الصحراوية عبارة عن خزان للإنسان الذى كانت تقذفه خلال فترات الجفاف ، بعد تراجع الأدوار الجليدية ، وتدفعه إلى الشمال بالدرجة الأولى . وبذلك لعبت الصحراء دورا كبيرا فى تعمير شمال إفريقيا(٤) .

٢ - ٣ شواطىء شمال إفريقيا الممتدة على طول آلاف الكيلومترات ، من نهر السنغال على المحيط الأطلسى غرباً ، إلى قناة السويس وسواحل البحر الأحمر شرقاً ، مرورا بالبحر الأبيض المتوسط . ولم تستعمل هذه الشواطئ فقط لصيد الأسماك ولكن استعملت كثغور وبوابات تواصل بين شمال إفريقيا وعالم البحر الأبيض المتوسط ، وما صاحب هذا التواصل من تأثير متبادل ساهم فى تكوين إرهاصات الخلفية الثقافية المشتركة لإنسان هذه المنطقة .

---

(٤) مصطفي أعشيي ، جذور بعض مظاهر وحدة أرض المغارب خلال عصور ما قبل التاريخ «ضمن أعمال الجامعة الشتوية الحاملة لعنوان : مجهودات وإسهامات الأجيال عبر التاريخ في بناء المغرب العربي» الكتاب الأول ، المحور التاريخي ، شركة الطباعة صوت مكناس ١٩٨٨ ص ص ٦٩ - ٨١ ، ص ٧٢ .

٣- نماذج من العلاقات بين الصحراء وشمال إفريقيا :

تتمثل هذه العلاقات ، على الخصوص ، فى التشابه الموجود ، بل وأحيانا التطابق التام بين الأدوات الحجرية التى تم استخراجها فى عدد من المواقع الماقبل التاريخية بالصحراء وشمال إفريقيا ، انطلاقا من أقدم الأدوات إلى أحدثها ، مما يوحى بأن البشر صانعو هذه الأدوات فى هذه المناطق ينتمون إلى جذور مشتركة أو على الأقل إلى منابع ثقافية واحدة أو متشابهة .

وهذا يعنى أن هناك اتجاه إلى الاعتقاد فى أن الجذور الأولى للإنسان وحضاراته المختلفة فى شمال إفريقيا بوجه عام ، ترجع فى جزء كبير منها إلى الإنسان فى الصحراء وجهوده .

فما هى المراحل التطورية التى عرفها العنصر البشرى فى هاتين المنطقتين ؟.

٣ - ١ العنصر البشرى : لقد كشفت الأبحاث الأثرية والتقنيات العلمية أن الصحراء وشمال إفريقيا عرفت استقرار الإنسان بها منذ البدايات الأولى لظهور الإنسان - مما يؤكد عراقة هاتين المنطقتين فى قدم استقرار الإنسان بهما . لكن قبل التعرض لبعض النماذج البشرية ومكانتها فى سلم التطور البشرى يبدو أنه من الأفضل التعرض ولو بإيجاز للمراحل التطورية الكبرى للإنسان بصورة عامة، والتى على أساسها يمكن وضع إنسان الصحراء وشمال إفريقيا فى المكان الملائم من سلم التطور البشرى .

وتنقسم ، عادة ، مراحل التطور البشرى إلى أربع مراحل :

٣-١-١ مرحلة الاوستر الوبيتيك (Australopithecus) أو الإنسان القردى الجنوبى ، موطنه الرئيسى لحد الآن شرق وجنوب إفريقيا . وتعود أقدم بقاياه

إلى أكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون سنة . ومن أشهر نماذجة الهيكل البشرى لوسى (Lucy) (صورة رقم ١)(٥).

٣-١-٢ مرحلة الإنسان المنتصب القامة (Homo Erectus) الذى عاش على الأرض ما بين مليون ونصف مليون ومائتى ألف سنة ق.م. وقد تم العثور عليه فى شرق إفريقيا والصحراء والصين وإندونسيا (خريطة رقم ١) (٦) .

٣-١-٣- مرحلة إنسان النياندرطال (Neandertal) ، عثر عليه لأول مرة فى ألمانيا ثم فى كل البلدان الأوروبية . ولذلك فيبدو أنه عمر أوروبا بالدرجة الأولى ما بين ٢٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ سنة ق. م ولا يوجد له أي أثر فى شمال إفريقيا والصحراء (٧).

٣ - ١ - ٤ - الانسان العاقل (Homo Sapiens) : ظهر منذ حوالى ١٠٠٠٠٠ سنة ق.م. وهو الذى يعمر العالم اليوم، وإليه تنتمي كل شعوب الأرض(٨).

وإذا حاولنا تتبع هذه المراحل التطورية فى الصحراء وشمال إفريقيا فماذا سنلاحظ ؟

٣-١-٥- إن المرحلة الأولى المتمثلة فى الأوسترالوبيتيك لم يعثر على أى بقايا لها فى الصحراء (٨م) وشمال إفريقيا تبعاً للأبحاث والتقنيات الأثرية التى

---

(٥) مصطفي أعشيي المدخل ص ١٢ - ١٣ .

(٦) المرجع نفسه ص ١٣ - ١٥ .

(٧) المرجع نفسه ص ١٥ - ١٧ .

(٨) المرجع نفسه ص ١٧ - ٢٠ .

(٨مكرر) تم العثور سنة ٢٠٠١ في صحراء شمال التشاد علي نموذج بشري من هذا الصنف يعود تاريخة إلي حوالي ستة مليون سنة وهذا يعني أنه أقدم بكثير من كل بقايا شرق أفريقيا .

أجريت لحد الآن . ولكن فى المقابل ، تم العثور على الأدوات الحجرية التى إستعملها الأسترالوبيتيك والتى وجدت بجانبه فى شرق إفريقيا ، وجدت فى شمال إفريقيا والصحراء مما يوحى بوجوده فى المنطقتين الأخيرتين إلا أن التحريات والأبحاث الأثرية لم تصل إليه بعد.

٣-١-٦- أما فيما يتعلق بالمرحلة التطورية الثانية والمتمثلة فى الإنسان المنتصب القامة فقد عثر فى شمال إفريقيا والصحراء على العديد من نماذجه ، مما يوكد عراقة هذا الإنسان فى المنطقتين وقدم تعميره لهما . وتعود أقدم هذه البقايا إلى حوالى مليون سنة وهو إنسان سيدى عبد الرحمن الثانى الذى استخرج سنة ١٩٩٦ . ويليه فى القدم إنسان التشاد (Tchadanthrope) وهو إنسان عتيق كذلك اكتشفه الباحث الفرنسى إيف كوبنس (Y. COPPENS) سنة ١٩٦١ فى التكوينات الرسوبية لصحراء جوارب . كما عثر على نماذج أخرى من هذا الانسان فى الدار البيضاء والرباط وسلا بالمغرب وباليكاو بالجزائر ، وقد أطلق عليه إسم محلى هو الأطلانثروب (At-lanthrope) والملاحظ فى العصر الحجرى القديم الأسفل أن البقايا البشرية للأطلانثروب نادرة فى تونس وليبيا والصحراء وموريتانيا ومنعدمة فى مصر ، ويفسر هذا على أنه راجع ، على ما يبدو ، إلى قلة التنقيبات والأبحاث الأثرية المرتبطة بإنسان هذه الفترة . إلا أنه فى المقابل يلاحظ توفر الأدوات الحجرية التى استعملها هذاالإنسان والتى تغطى كل إفريقيا والصحراء ، مما دفع الباحثين إلى القول أن الأطلانثروب عاش فى كل إفريقيا والصحراء وليس فقط فى المغرب والجزائر.

٣-١-٧- وإذا إنتقلنا إلى المرحلة التطورية الثالثة والمتمثلة فى أوربا بإنسان النياندرطال ، فإن الصحراء وشمال إفريقيا لا يتضمنان أى أثر لهذا النموذج البشرى . إلا أنه فى المقابل يلاحظ إستمرارية وجود الإنسان من ليبيا شرقاً إلى

المغرب غربا والصحراء وجنوباً. وهذا النموذج البشرى الشمالى الإفريقى الصحروای، يعتبره الباحثون تطوراً محليا للإنسان المنتصب القامة وصلة وصل بينه وبين الإنسان العاقل . وهذا يعنى أنه لا وجود للنياندرطال الأوربى فى المغرب وإنسان هوافطيح فى ليبيا . ففيما يتعلق بالبقايا البشرية العائد لجبل إيغود والذى سبق للباحث الفرنسى كوبنس أن أجرى دراسات على بقاياه وحدد زمنه بحوالى خمسين ألف سنة قبل الميلاد ، وأكد عدم انتمائه إلى فصيلة النياندرطال كما سبق للأستاذ اينوشى أن أعلنه عند اكتشافه البقايا سنة ١٩٦٢[٩] إلا أن الباحث المغربى الشاب بن نصر أكد بعد إعادته لدراسة هذه البقايا أنها تعود إلى أكثر من ١٣٠٠٠٠ سنة ق. م بل وربما أقدم بذلك بكثير.

ومن خصائص إنسان جبل ايغود أنه يجمع بين بعض سمات الإنسان المنتصب القامة وسمات الإنسان العاقل مما يؤكد أنه يمثل مرحلة تطورية انتقالية نحو الإنسان الحالى أى أنه عبارة عن صلة وصل أو الحلقة الفاصلة بين الإنسان المنتصب القامة والإنسان العاقل . وهذه الميزة التطورية لا نجدها إلا فى المغرب فقط مما جعل منه أحد مراكز الاهتمام الأساسية لدراسة تطور النوع البشرى .

والغريب أن كل بقايا هذا الإنسان عثر عليها فى داخل الكهوف مما يعني أنه كان يعيش زمن الدور الجليدى الأخير «ڤورم»

٣-١-٨ وآخر مرحلة فى التطور يتعلق بالإنسان العاقل الذى عثر على بقاياه فى كل من شمال إفريقيا والصحراء . وهو الإنسان صانع الحضارة العاطرية والحضارة الوهرانية والحضارة القفصية .

---

(9) Le Matin du Sahara, Deux Crànes vieux de 50.000 ans decouverts vrés de Safi sont remis à S. M. Hassans II, no. 3898, - 5 leudi 15 Juillet, 1982 p .1 et 3 .

ويبدو أنه مع نهاية المرحلة الطويلة للعصر الحجرى القديم بأقسامه الثلاثة ، ونهاية الأدوار الجليدية ، وبداية الجفاف فى الصحراء الكبرى ، بدأت تفد على أرض شمال افريقيا موجات بشرية جديدة، قدم ، أغلبها من الصحراء، اختلطت بالسكان الأصليين وامتزجت فيهم وساهمت معهم فى تكوين الفرشة السكانية للمنطقة . وعليه فالعنصر البشرى فى شمال إفريقيا يكون قد التأم انطلاقا من العناصر البشرية الأصلية التى عثر على بعض نماذج بقاياها فى العديد من المواقع الأثرية ، إضافة إلى العناصر البشرية القادمة من الصحراء الكبرى بالدرجة الأولى ومن الشرق أحيانا .

٣-٢ العلاقات البشرية بين شمال إفريقيا والصحراء : من خلال مراجعة أولية لما خلفه إنسان العصور الما قبل التاريخية فى الصحراء وشمال أفريقيا ، اتضح أن أغلب هذه المخلفات تتشابه على طول وعرض المنطقتين ، بل وأحيانا تتطابق ، مما يوحى ببروز البدايات والإرهاصات الأولى لوحدة ذهنية وحضارية فى المنطقتين وتتمثل بعض مظاهر العلاقات فى العناصر التالية :

٣-٢-١ الصناعات الحجرية : لقد عاش إنسان المنطقتين خلال عصور ما قبل التاريخ عيشة تتلاءم والظروف البيئية المحيطة به واضطر للتأقلم معها ، وصنع منها أدواته الحجرية والعظمية والخشبية التى يحتاجها . وقد عرفت هذه الأدوات تطورا فى تقنيات صنعها تبعاً لتطور الإنسان الذهنى وتفاعله مع بيئته . ومن أقدم هذه الأدوات الحجرية التى استعملها الإنسان بصورة عامة وإنسان الصحراء وشمال إفريقيا بصورة خاصة هى المعروفة لدى الباحثين باسم حضارة الحصاه أو الحصى المشذب أو المعدل .

٣-٢-١-١ حضارة الحصاة أو الحصاة المشذبة (Pebble - Culture, le galet aménagé): وهى أدوات حجرية بدائية مصنوعة من الحصاة يرجع

تاريخها إلى ما يزيد على مليونين ونصف مليون سنة(٩م) وذلك باستعماله طريقة البوتاسيوم اركون (KA)على بعض الأدوات المحتوية على مواد بركانية . أقدم هذه الأدوات الحصوية استخرج من منطقة حوض نهر الاومو باثيوبيا . وتتمثل فى حصاة دائرية الشكل تنزع منها شظية واحدة أو عدة شظايا ، مما يجعل جزءا من الحصاة حدا قاطعا (صورة رقم ٢) وقد استعمل الإنسان هذه الأداة الحجرية مدة طويلة من الزمن تجاوزت المليون ونصف المليون سنة . وعلى الرغم من أنه لم يعثر لحد الآن على بقايا الإنسان صانع هذه الأداة فى شمال إفريقيا والصحراء والذى يعتبر أقدم الأنواع البشرية البائدة والذى اكتشف آخر نموذج له سنة ١٩٧٢ فى أولدوڤاى ، فإنه يجوز لنا ، انطلاقا من العثور على هذه الأدوات الحصوية فى العديد من مواقع الصحراء وشمال إفريقيا القول بأن الإنسان صانع هذه الأدوات كان موجودا فى هاتين المنطقتين ، فقد تم العثور على الحصاة المشذبة فى المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والصحراء (خريطة رقم ٢) . مما يدفعنا إلى القول بوجود علاقات حضارية وبشرية منذ البدايات الأولى للإنسان بين هاتين المنطقتين . ويمكن أن نعتبر هذا مؤشرا إلى إمكانية وجود خلفية ذهنية مشتركة أو متقاربة ومتشابهة مما جعل نتيجة التفاعل بين البيئة والإنسان عبارة عن منتوج حضارى متقارب أو متشابه .وقد عرفت حضارة الحصاة تطورا تدريجيا فى شكلها وفى طريقة صناعتها إلى أن أصبحت منذ مليون سنة تقريبا على شكل فأس يدوية سميت بذات الوجهين أو الحضارة الأشولية .

(9 b) J. CHEVAILON, Les industries trés archaïques, in Science et vie. Hors Serie n° 129, decembre 1979, pp. 90 - 102, p. 40 - 51, (= Science et vie, n° 129) .

A. LEROI. GOURMAN, et autres, Le Prehistoire, Nouvelle Clio n° 1, PUF 3e édition 1977, P. 73-79 (= Nouvelle Clio 1).

P. BEBERSON. Le paléolithique inférieur du Maroc attantique, PSAM. 17, 1961 pp. 41 - 110 (PSAM. 17) .

٣-٢-٢ ذات الوجهين (Bifaces) : وهى أدوات حجرية تعتبر أكثر تطورا من الحصاة المشذبة ، كما أنها كانت فى الأصل حصاة نزعت منها شظايا عديدة بطريقة أكسبتها وجهين متشابهين إلى أن أصبح لها شكل كمثرى . وقد تم العثور على هذه الأدوات فى كثير من المواقع بشمال إفريقيا والصحراء . وتمتد الفترة التى غطتها هذه الصناعة من مليون سنة إلى حوالى مائة ألف سنة قبل الميلاد مع نهاية العصر الحجرى القديم الأدنى (١٠).

وإن وجود هذه الأدوات الحجرية فى المنطقتين دليل آخر على وجود تبادل للتأثيرات الحضارية واستمرار للعلاقات الحضارية والبشرية بين الصحراء وشمال إفريقيا فى هذه المراحل العتيقة من ماقبل التاريخ .

ومع انتهاء العصر الحجرى القديم الأدنى ، وبداية بزوغ الإنسان العاقل ، عرفت تقنيات صناعة الحجر تطوراً كبيراً تميز بتنوع وتعدد الأدوات الحجرية ، وبكونها أصبحت أكثر دقة نظرا لسيطرة الإنسان على تقنيات وأساليب صنع أدواته الحجرية . ومن أهم هذه التقنيات :

٣-٢-٣ الفالوازية الموستيرية : (شكل رقم ١) التى تتميز فؤوسها اليدوية ذات الوجهين بتقلص حجمها إذ أخذت الأدوات الكبيرة تتلاشى ، تاركة مكانها لأدوات أصغر حجماً ، وأكثر تنوعا مثل المكاشط (Racloirs) والمثاقب (pointes) والشفرات والسكاكين (Les lames) (١١) وقد عرفت شمال إفريقيا هذه الصناعة فى العصر الحجرى القديم الأوسط إلا أن مواقعها قليلة إذا ما قورنت بمواقع الفترات الأخري. وتعود قلة وجود هذه التقنية إلى بروز تقنية صناعية

---

(10) J. CHEVAILON, Le complexe acheuléen, Science et vie n° 129, pp. 72 - 80 pp. 75 - 78 .

P. BEBERSON. PSAM, pp. 120 - 398 .

(11) J. CHEVAILON, Homme et cultures du Paléalithique moyen, Science et vie n° 129, pp. 90 - 102 pp. 93 - 94 .

جديدة إبتكرها إنسان الشمال الإفريقى ، وغطت كل شمال إفريقيا والصحراء من المحيط الأطلسى غربا إلى البحر الأحمر شرقا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى التخوم الجنوبية للصحراء الكبرى جنوباً. وتسمى هذه التقنية الصناعية بالحضارة العاطرية.

٣-٢-٤- الحضارة العاطرية : سميت بهذا الإسم نسبة إلى بئر العاطرة (Bir Alater) الواقع شرق الجزائر والذى وجدت به ودرست فيه أدوات هذه الصناعة لأول مرة. وأول من تأكد أنها تقنية حضارية محلية هو الباحث الفرنسى ريكاس (Reygasse) الذى وصفها سنة ١٩٢٢ فى دراسته التى نشرتها الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم(١٢).

أما قبل هذا التاريخ، فإنه رغم العثور على نماذج من هذه الأدوات فى مواقع متعددة بشمال إفريقيا والصحراء، إلا أن الباحثين الفرنسيين كانوا يطلقون عليها تسميات غامضة، كما يحصل مع كل إكتشاف أثرى يبرز شخصية المنطقة وإسهامها فى الحضارة الإنسانية؛ من هذه التسميات نيوليتى بربرى (Néo-lithique berbére) الذى أطلقة عليها الفرنسى بالارى (pallary) سنة ١٩٠٩ (١٣).

ويحتل العاطرى، فى الوقت الراهن من البحث الأثرى فى شمال إفريقيا والصحراء، المكانة التى يحتلها الموستيرى خارج المنطقتين. أما تسلسله الزمنى، فقد أثبتت التقنيات الأثرية الطبقية، أنها تأتى بعد الموستيرى فى الزمن بل وفى غالب الأحيان تحتل مكانته، وأنها بالإضافة إلى ذلك سابقة على بداية العصر الحجرى القديم الأعلى.

---

(12) RYGASSE, Etudes de palethnologie maghrebine, in Recueil de al Societé archéologique de Constantine, Vol 3, (1921 - 1922) ; Association Française Pour l'avancement des sciences, 46e congrés (1922) 667.

(13) PALLARY, Instructions pour les recherches préhistoriques dans le Nord - Ouest de l'Afrique 1909.

ورغم الصعوبة فى تحديد المركز الذى نشأت فيه هذه الحضارات لأول مرة ومنه إنطلقت إلى باقى المراكز، إلا أن المواقع وتركيزها على الساحل الغربى فى المغرب، وإستمرار إنتشارها فى ليبيا ومصر، وتوجهها قويا نحو الجنوب فى الصحراء الجنوبية كبحيرة تشاد (١٤) يجعل من هذا التركيز فى المغرب وتدرج قلة المراكز كلما إتجهنا إلى الشرق إلى غاية مصر تجعلنا نفترض أن مهد هذه الصناعة كانت فى المغرب الحالى، ومنه انتشر فى باقى شمال إفريقيا والصحزاء. وهذا يعنى أن هذه الصناعة فرضت وجودها فى كلا المنطقتين؛ وأن العلاقات الحضارية هذه المرة، كان إتجاهها غربياً - شرقيا وغربيا جنوبيا وشرقيا، أى أن الصناعة العاطرية كانت المحرك الأساسى القوى التأثير فى هذه المرحلة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأن إرهاصات ما يمكن أن نسميه الوحدة الحضارية بين شمال إفريقيا من جهة والصحراء من جهة أخرى تعود إلى هذه المرحلة .

وقد طرح نقاش حول طريقة وصول هذه الحضارات إلى الصحراء. ويقدم الباحث هوكو إفتراضا ينطلق من أن التعمير العاطرى للصحراء بدأ منذ حوالى ٣٠٠٠ سنة ق.م حين إتجهت موجات الإنسان صاحبة الحضارة العاطرية، من بلدان شمال إفريقيا نحو الصحراء، وإنتشرت شمال الصحراء. وإستقر أخيراً العاطرى فى المستوى الثالث على ضفاف البحيرات الجنوبية ووصل إلى المرحلة النهائية السابقة على العصر الحجرى الحديث (١٥). ويعتمد هوكو فى هذا الافتراض علي التشابه الكبير بين الأدوات العاطرية النهائية في مغارة العالية بطنجة فى المغرب ودار السلطان قرب الرباط في المغرب أيضاً ، العائدين إلى

---

(14) Hugot, Documents scientifiques des missions Berliet Tenere- Tchad, Paris AMG, 1992 pp. 158-162.

(15) H. J. Hugot, Limites méridionames dans l'Atérien, Actas N. Coryr, P.P. E.R 1974.

ID Le Sahara avant le désert, Parus les Hesperides 1974.

ID L'Afrique préhistsrique Paris les Hatier 1970.

حوالى ٢٥٠٠٠ سنة ق. م من جهة وأدوات المستوى الثالث على ضفاف البحيرات الجنوبية بالصحراء وعدم وجود صناعة ما قبل تاريخية أخرى بين الحضارة العاطرية والعصر الحجرى الحديث من جهة أخرى .

وتتميز أدوات الصناعة العاطرية بكونها أدوات حجرية خاصة نابعة من تقنية صناعة ذات الوجهين التى استخرج منها رؤوس السهام والنصال الطويلة والمكاشط وأدوات مذنبة على شكل رأس يسهل استعمالها (شكل رقم ٢).

وقد عثر على إنسان صانع هذه الحضارة فى مواقع متعددة فى المغرب منها كهف دار السلطان سنة ١٩٧٥ وكهف تمارة فى نفس السنة كذلك .

ويبدو من خلال الدراسات الأثرية أن الحضارة العاطرية (١٦) بدأت منذ حوالى ٤٥٠٠٠ سنة ق. م واستمر وجودها إلى حوالى ٢٠٠٠٠ سنة ق. م لتخلفها الحضارة الوهرانية .

٣-٢-٥ الحضارة الوهرانية أو الايبيروموروسية : إلى وقت قريب كان يعتقد أن هناك فراغ حضارى أو هوة (Hiatus) اركيولوجية تفصل بين الحضارة العاطرية والحضارة الوهرانية . ولكن التنقيبات الأثرية التى أجراها الباحث الفرنسى القس روش (l'Abbé Roche) فى مغارة الحمام بتافوغالت بشرق المغرب ، أثبتت أن المستويين ١٧و١٨ ، من مستويات المغارة والواقعين فى أسفل الطبقات الأثرية يمثلان الحضارة العاطرية وبداية الحضارة الوهرانية فى المستويات العليا انطلاقا من المستوى ١٦ (١٧) (شكل رقم ٣). وهذا ما يعنى عدم وجود أية هوة بين الحضارتين العاطرية والوهرانية وأن هناك استمرارية واتصال

---

(١٦) كان انتشار الحضارة العاطرية واسعا جدا ، إذ نجدها فى المغرب ثم فى الجزائر وتونس، وفى موريطانيا ، وفى النيجر ومالى وتشاد ، وفى ليبيا ومصر وبل ووصلت إلى شمال المملكة العربية السعودية وفلسطين .

(17) J. Roche L'Atérien de la grolle de Taforalt, BAM, X, 1976 p. 12.

بين الحضارتين . وليس من المستبعد أن يكون للحضارة العاطرية أثر فى الحضارة الوهرانية .

تتميز الحضارة الوهرانية بأنها حضارة ساحلية تنتشر فى شمال إفريقيا من المغرب غربا إلى ليبيا شرقا ، عكس الحضارة القفصية التى كانت حضارة داخلية أى قارية . وأول من سماها بالارى (Pallary)[١٨] الذى أطلق عليها إسم الحضارة الايبيروموريسية معتقدا أنها صناعة قادمة من شبة جزيرة إيبيريا . ولكن إتضح فيما بعد أن هذه الحضارة لا علاقة لها إطلاقاً بايبيريا وأنها حضارة محلية صرفة، وأعقب ذلك تحريات ودراسات وحفريات قام بها الباحث الفرنسي ڤوفري سنة ١٩٣٢ في مواقع بالجزائر علي الخصوص، جعله يطلق عليها إسم الحضارة الوهرانية[١٩].

وأهم سمات الحضارة الوهرانية صغر أدواتها الحجرية، ولا سيما النصال الصغيرة ذات الشكل الهلالى والمكاشط المستديرة وبعض الأدوات المستعملة لسحق الألوان بجانب أدوات من العظام المصقولةالمهندمة.

ويحدد الباحث الفرنسي القس روش تاريخ هذه الحضارة بإستعمال الكربون C. 14 (شكل رقم ٤)، ما بين ١٠٠ ٢١ ± ٤٠٠ و ٨٠٠ ١٠ ± ٤٠٠ من الآن [٢٠] بينما يحدد تاريخها ماكبرني في ليبيا ما بين ١٤٠٠٠ ق.م و ١٠٠٠ ق.م. وهذا يعني أن الحضارة الوهرانية في غرب شمال إفريقيا أقدم منه في شرقها فهل هذه التقديرات المقارنة تسمح لنا بإفتراض الأصل في المغرب ، ومنها إتجهت بالتدريج إلي الشرق حتي وصلت إلي ليبيا ؟ هذا مع العلم أنه لحد الآن ، لم يعثر علي أي شئ يشير إلي وجود هذه الحضارة في الصحراء . فهل

---

(18) Pallary , Décuvertes préhistoriques dans Le Maroc Oriental, Anthropogie T. XXVII, Paris - 1927 .

(19) R. Vaufry, Préhistoire de l'Afrique, t. I, "Maghreb", 1955.

(20) J. ROCHE, l'Atérien, BAM, X, 1976 p. 12.

هي حضارة مغربية صرفه ولا وجود لها في الصحراء أم أنها توجد بها ولكن معاول المنقبين لم تصل إليها بعد ؟علي كل، وحسب التحريات والتنقيبات التي أجريت لحد الآن في الصحراء لا تشير إلي وجود هذه الحضارة في الصحراء عكس الحضارة السابقة العاطرية فهل هي بداية إنتقال للعلاقات بين الصحراء وشمال إفريقيا من علاقات عمودية إلي علاقات أفقية، أي من علاقات شمال جنوب وجنوب شمال إلي علاقات غرب - شرق وشرق غرب . أي أن العلاقات التي كانت صحراوية شمال إفريقية في البداية إنتقلت في عهد الحضارة العاطرية إلي علاقات شمال إفريقية صحراوية ثم أصبحت في عهد الحضارة الوهرانية علاقة بين مناطق شمال إفريقية فقط لتصنف فيما بعد، في عهد الحضارة القفصية بحيث لن تتجاوز بعض المواقع في جنوب تونس وشرق الجزائر.

٣-٦-٦- الحضارة القفصية : ويلي من الناحية الكرونولوجية الحضارة الوهرانية، الحضارة القفصية . وهذه الحضارة بدورها كان قد أطلق عليها في بداية إكتشافها سنة ١٩٠٩ بالحضارة والصناعة الجيتولية(Industrie gétule) لكن التشابه بين أدوات هذه الصناعة وأدوات الأدوار الأولي من العصر الحجري القديم الأعلي في أوربا وخاصة الحضارة الأوريكنسية (Aurignacien)، دفع الباحثين إلي المزيد من التحري والتقصي وإعادة النظر في المكتشفات الأثرية، قام بها كوبير [٢١] (Gobert) وڤوفري (Vaufry) [٢٢] وقد ألقيا أضواء جديدة علي الموضوع وخاصة بعد إستخراجهم للأدوات الدقيقة بإستعمال الغربال مما يوضح أن الأنسان القفصي كان يستعمل أدوات شبيهة بالأدوات الميكروليثية التي

---

(21) E. G. GOBERT, EL Mekta, Station princeps, de Capsien, in karthago, III, Tunis, 1951 - 1952 .

ID, le Site quaternaier de sidi Mansour à Gafsay in Quternaria I, Roma, 1954 ; l'Anthropologie, 32, Paris 1954 .

(22) R. VAUFRY, Préhistoire de l'Afrique, I, 16 .

تميز العصر الحجري الوسيط (Mésolithique) . مما دفع بكوبير وڤوفري إلي إرجاع هذه الصناعة إلي العصر الحجري الوسيط . وإذا أضفنا إلي هذا أن مواقعها سطحية والكثير منها علي هيئة تلال مكونة من تكديس الرماد وفضلات الطعام التي تركها الإنسان القفصي والمتكونة اساسا من الحلزون ، مما جعل الباحثين يطلقون عليها الرماديات أو الحلزونيات (Les escargotiéres).

ومن مميزات الحضارة القفصية أنها أقل إنتشاراً في المكان والزمان، إذ لم تتجاوز المناطق الداخلية بتونس، وخاصة جهتي قفصة وتبسة . كما تمتد إلي شرق الجزائر وخاصة جهة سطيف وقسنطينةولا تتعدي في الغرب جهة تيارت . ولم يعثر علي أي أثر لهذه الحضارة لحد الآن في المغرب والصحراء. ولكن يبدو أنه عثر علي مايشبه هذه الصناعة في الواحات المصرية وجنوب مصر وشمال السودان.

أما من الناحية الزمنية فقد أثبتت التحاليل المخبرية بإستعمال الكربون C14 أن الحضارة القفصية ظهرت بعد الحضارة الوهرانية ولم تعمر إلا مدة قصيرة نسبيا تتراوح ما بين منتصف الألف السابع والألف الرابع قبل الميلاد (٦٤٥٠ ق.م ± ٤٠٠ – ٣٠٥٠ ق.م ± ١ ٠٠ ١) [٢٣] أي أنها من الناحية الزمنية تدخل في إطار العصر الحجري الحديث وتعود أهميتها الحضارية إلي أن رجال الآثار عثروا في مواقع ومواطن الحضارة علي أدوات حجرية، تبدو أنها كانت تستعمل في الزراعة مما يوحي بأن الإنسان القفصي عرف الزراعة وتربية الماشية.

٣-٣ تربية الماشية والزراعة ، كان إلى وقت قريب يرتبط اكتشاف الزراعة ودخول المغرب العصور التاريخية بقدوم الفينيقيين ؛ إلا أن الأبحاث الأثرية الأخيرة

---

(٢٣) عبد الرزاق قراقب وعلي مطيط ، حضارات ما قبل التاريخ (تونس والبلاد المغاربية دار اليف ، منشورات البحر الأبيض المتوسط تونس ١٩٩٣ ص ٦٨ ، ٦٩ (= قراقب ومطيط حضارات ما قبل التاريخ) .

والدراسات المنصبة على هذين الموضوعين آكدت آن ممارسة تربية الماشية والزراعة كان شيئا معروفا لدى سكان شمال إفريقيا ، وربما لدى أبناء الصحراء كذلك منذ فترات قديمة .فهل يمكن تحديد تاريخ ظهور الزراعة فى بلدان شمال إفريقيا والصحراء وما هى الدلائل أو المؤشرات التى تدل على وجودها ؟

إن أول صعوبة تعترضنا تتمثل فى عدم توفرنا على مادة علمية كافية لمعالجة أصول الزراعة ، هذا فضلا على أن ما هو متوفر كتب أغلبه أجانب انطلاقا من أفكار مسبقة ترتكز على أن كل الابداعات الحضارية التى عرفتها شمال إفريقيا جاءتها من الخارج . بل وهناك من هؤلاء الباحثين من يرى بما أن الزراعة مرتبطة بالعصر الحجرى الحديث ، وبما أننا لا نعرف جيدا متى بدأ هذا العصر ومتى انتهى [٢٤] فإن هذا يطرح صعوبات كبيرة فى التعرف على أصول الزراعة فيها . [٢٥] ويذهب كامبس (Camps) بعيدا إلى حد أنه يذكر بما أن ممارسة الزراعة تعتبر من أهم سمات العصر الحجرى الحديث التى همت الشرق الأدني وأوربا فانه لا يمكن الأخذ بنفس الحكم كلية فى إفريقيا . [٢٦] هذه بعض أمثلة من مواقف الباحثين الأجانب من معرفة منطقة شمال إفريقيا بالزراعة ، فهل يمكن اعتبارها أحكاما نهائيا ؟ وكيف يعقل أن تعرف جهة فى شمال إفريقيا ، وهى مصر ، الزراعة ولا تعرفها جهات قريبة من نفس المنطقة ؟

لذلك لفتح المزيد من الآفاق حول هذا الموضوع يبدو أنه من الأفضل العودة إلى دراسة بعض المستخرجات الأثرية التى تم العثور عليها فى بعض المواقع التى يبدو أن لها علاقة بالعصر الحجرى الحديث وبإرهاصات الزراعة . من هذه المستخرجات مستخرجات مواقع الحضارة الوهرانية والحضارة القفصية والريف الشرقى .

---

(24) BALOUT, Préhistoire de l'Afrique du Nord, de. AMG. Paris 1995, p. 450 .

(25) G. CAMPS, Massinissa ou les débuts de l'Histoire, Libyca 1956, p. 57 .

(26) I bid 59 .

ففيما يتعلق بالحضارة الوهرانية فقد تم العثور على الكرات الحجرية المثقوبة (Les boules de piérre perforées) الصغيرة الحجم التى تستعمل كثقالة (poids) للعصا الحفارة (Le baton a fouir) فى موقعين وهرانيين بالجزائر تمراحت ورأس سيكيلى (٢٧). ويتحدث كامبس عن هذه الأداة قائلا : «ان هذه الأداة جد معروفة بإفريقيا وخصوصا عند شعب البوشمن وأيضا بإثيوبيا وأنها تستعمل لغرض تهيئة الأرض وتنعيمها لدى الذين يزاولون زراعة فقيرة (٢٨).

أما بالنسبة للحضارة القفصية ، قد عثر في بعض طبقاتها الأثرية على نوع من المناجل (Les faucilles) والكرات الحجرية المثقوبة (Les boules de piérre perforées) والمدقات (Les molettes) وأداة الحصاد (Le lus-tre des moissons) (٢٩). ومع كل هذا، فإن كامبس يتحفظ بخصوص الأدوات القفصية التى يبدو أن لها علاقة بالزراعة ويؤكد علي عدم وجود زراعة لدى القفصيين (٣٠)، مشيرا فى نفس الوقت إلى أن أول أداة يمكن ربطها بالزراعة هى الشفرة (Le lame)، والتى عادة ما تعرف باداةالحصاد (Le lustre des moissons) والتى استخرجت من بعض الطبقات الأثرية القفصية . ومع ذلك ، فإن كامبس ، ورغم تأكيده بارتباط أداة الحصاد هذه بالزراعة إلا أنه يقول بأنه لا يجب الاعتقاد بأن أداة الحصاد هذه قد استعملت فى الزراعة ، بل يمكن أن يكون قد استخدمت فى قطع سيقان نباتات غير صالحة للأكل ، ولكن لها منافع كثيرة ، كالقصب الذى يستعمل كثيراً فى صنع الفخاخ (٣١).

---

(27) I bid p. 60 - 61 .

(28) I bid p. 61 .

(29) Balout, Préhistoire, p. 116 .

(30) CAMPS, Les civilisations préhistoriques, p. 170 .

(31) I bid .

وكأنى بكامبس يعمل ما في وسعه من أجل نفى وجود أى إسهام حضارى لأبناء هذه المنطقة رغم وجود بعض المؤشرات الموحية بذلك . فوجود الأدوات الزراعية فى بعض المواقع الأثرية هى ليست دليلا كافيا ، فى نظر كامبس ، بل يمكن اعتبارها محاولة التوجه نحو زراعة فعلية . وبما أن التحديد الزمنى لرماديات الحضارة القفصية تتزامن والعصر الحجرى الحديث فى البحر الأبيض المتوسط ، فإن كامبس ، يرجح أن القفصيين يمكن أن يكونوا قد مارسوا القطف بطريقة انتقائية مكنتهم من حفظ ما جمعوه . ويمكن اعتبار هذه العملية ، حسب كامبس دائما ، أول خطوة نحو زراعة حقيقية(٣٢).

والجدير بالإشارة هنا ، أن الباحث ريكاس تحدث عن نوع من المعاول (Pics) عثر عليها جنوب قسنطينة بالجزائر ، أطلق عليها اسم المحروكاتى (٣٣) الذى يظهر أن له ارتباط وثيق بالزراعة ، وهو نوع من المعاول الصوانية المنحوتة وغير المصقولة . ويفترض ريكاس أن هذه الصناعة ذات أصول إفريقية وأن تأثيرها وصل إلي أوربا بطرق يجهلها . وقد وجدت هذه الأداة الزراعية أيضا فى جهة الحوز مما جعل الباحث رودريگ (Rodrigue) يرجح أن هذه الأداة استعملت كأداة للحرث ؛ وهذا يعنى قيام الزراعة بالمغرب قبل ظهور المحراث (٣٤).

ومن المؤشرات الأخري التى تميل كفة معرفة إنسان العصر الحجرى الحديث فى شمال إفريقيا للزراعة وممارسته لها ، هو ما استخرجته البعثة الأثرية العلمية المغربية الألمانية التى نقبت فى شرق جبال الريف بالمغرب وأقامت

---

(32) I bid .

(33) M. REYGASSE, Découvertes d'une téchnique campinième dans le palèotithique infèrieur du sud cantantinois, extrait du Congrès prèhistorique de France, Xe session ler Manus, 1953,p.3.

(34) A. RODRIGUE , un nèolithique agricole dans le Haouz, BAM, XV, 1985, pp. 88 - 98.

معرضا لمستخرجاتها الأثرية بالمتحف الأثرى بالرباط من ٦ مايو إلى ٦ يونيو ١٩٨٨ أثبتت من خلاله ظهور الفلاحين الأوائل بهذه الجهة منذ حوالى ٩٠٠٠ سنة بجانب مربى الماشية والصناع الأوائل للفخار . وفى حوار مع أحد الباحثين المغاربة المشاركين فى هذه البعثة العلمية أشار إلى عثوره على حيوان يبدو أنه مستأنس فى موقع إيفرى الباورد قرب قرية صاكة بإقليم الناظور .

وإذا أضفنا إلى هذه المؤشرات الواضحة ، النقوش والرسوم الصخرية الموجودة فى جبال الأطلس وجنوب المغرب والجزائر وليبيا ، وفى الصحراء الكبرى ؛ التى تجسد مشاهد من أنشطة سكان هذه المناطق ومن ضمنها نقوش خاصة بعملية الحرث اشهرها نقش غريب ن ايكيس الذى درسه مالوم (Malhomme) ونشره فى مجلة « ليبيكا » ١٩٥٣(٣٥).

ويبدوا أن الصحراء عرفت الزراعة منذ فترات قديمة ، ومما يؤكد ذلك العثور على غبار الطلع فى موقعى منيات وامكنى بالصحراء الجزائرية . وقد تم التحديد التاريخي لزمن بعض الأدوات الحجرية المصحوبة بغبار الطلع لبعض المزروعات فى موقع منيات ب ٣٤٥٠ ق. م أما موقع امكنى فقد تم العثور فيه على الفخار وقطعتى رحى وعشر مدقات (Molettes) بجانب غبار الطلع . وهذا ما جعل كامبس يغير موقفه ويؤيد إمكانية ممارسة الزراعة فى أمكنى بالألف الثامن ق . م (٣٦).

وعليه ، يبدو من خلال ما تقدم ، أن الزراعة عرفتها المناطق الصحراوية ومناطق شمال إفريقيا فى وقت متقارب تقريبا نظرا لعثور الباحثين على بعض الأدوات الزراعية فى هذه المناطق كلها ، مما يؤكد تشابه التطور فى كل من

---

(35) MALHOMME, Les reprèsentations anthropomorphes du grand Atlas (Maroc) Libyca, Anthrop. archeol. prèhist., 1953, pp. 373 - 385,.p. 377.

(36) CAMPS, Les civilisations p. 236 .

الصحراء وشمال إفريقيا . وهذا يعنى وجود عناصر ثقافية مشتركة بين الصحراء وشمال إفريقيا.

ومع ذلك ، فإن هذه الإفتراضات ليست نهائية ؛ نأمل أن تسمح الدراسات والأبحاث الأثرية الجارية حول هذا الموضوع فى عدد من الجهات فى شمال إفريقيا والصحراء على كشف النقاب عن حقبة مهمة من حقب تاريخ العلاقات بين شمال إفريقيا والصحراء .

من خلال النماذج المقدمة يتضح أن الصحراء وشمال إفريقيا كانت تربطهما علاقات مسترسلة طيلة عصور ما قبل التاريخ ، تساير الظروف المناخية والتغيرات التى تعرفها ، مما جعل الإنتاج الحضارى فى المنطقتين يكون متشابها فى غالب الأحيان سواء كان مصدره الصحراء أو شمال إفريقيا .

BIBLIOGRAPHIE

L. BALOUT : Pluviaux, interglaciaires et préhistoire saharienne, Travaux IR.S, 8, 1952, pp. 9-21.

ID - Les hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara inventaire descriptif et critique. pp. II, 1954 .

ID - Prehistoire de l'Afrique du Nord, Paris, A.M.G, 1955 .

ID - L'art rupestre nord-africain et saharien. Etat de quelques problémes.simposio internacional de arte rupestre, Barcelona 1968, pp.257-26

P. BIBERSON : Recherches sur le paléolithique inférieur de l'Adrar de Mauritanie, Actes Ve congres P.P.E.Q. 1965, pp 173- 189.

ID - Le Paleolithique inferieur du Maroc atlantique, PSAM., 17, 1961.

M.BREZILLON: Dictionnaire de la Préhistoire, Paris larousse 1970.

K.W. BUTZER: The last " pluvial " phase of the eurafrican sultropics. Ies changements de climate, recherches sur la zone aride, Paris, Unesco 20, 10, 57: pp.211-916.

H. CAMPS - Faber Matiére et art mobilier dans la préhistoire nord-africaine et saharienne. AMG. Paris 1966.

G.CAMPS: Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du sahara.Paris Douin 1966.

MC.CHAMLA: Les populations anciennes du sahara et des régions limithiophes: étude des restes humaine neolithiques, et protohistoriques MCRAPE, 9.1968.

A. CHEVALIER: Le sahara. centre d'origine des plantes cultivées. société de Biogéographie.. VI°. "la vie dans la région désertique nord--tropicale de l'Ancien Monde" Paris 1998, pp.309-399.

J.D CLARK: Ecology and culture in the African Pleistocene. S.A.J.5.59,77 1963 pp.353-366.

ID - Atlas, of African prehistory, Chicago, Unio.Press 1967.

ID - The Prehistoric origines of african culture in J.D Fage and R.A. oliver, Papers in african préhistory, cambridge 1970.

C.N.R.S (ed): les methodes quntitatives d'étude des variations du climat au cours du pleistocene. colloque international du C.N.R.S, n° 219, 1974 .

Y.COPPENS: Découverte d'un Australopithéciné dans le villafranchien du Tchad. CRAS,260,1961 pp.385, 3852 .

ID - L'Hominien du Tchad, CRAS, 260, 1962 p. 28962871.

ID - Le Tchadanthropus, 70, 1966, pp.5-16 .

O. DAVES, H. HUGOT ET D SEDDON: The origines of African agriculture C.A.9.5,1968, pp.479-504

C.A.DIOP: Nations négres et culture, Paris 1955, Presences africaine

ID - Histoire primitive de l'Humainté: evolution du monde noir, BIFAN.B.24,1962 pp.449-544

J.D FAGE An atlas of African history, london, EWD, Arnold 1965 .

E.F. GAUTIER: Le sahara, 3e edition, Paris, Payot 1950 .

H.J. HUGOT: Essai sur les armatures de points de fléches du sahara, lebyca,5, 1957, pp.89-236.

ID - L'Afrique prehistorique, Paris Hatier 1970

ID - Le sahara avant le desert, Paris, les Hesperïdes 1974.

HJ. HUGOet BRUGGMANN : Les gens du matin. sahara, dix mille ans d'art et d'Historie, Paris, lausanne 1976 ·

J. D. LAJOUX : Tassili N'Ajjer, Paris chêne 1977

H. LHOTE : La route des chars de guerre libyens, Tripoli Gav. Archeologia 9, 1966, pp. 28-35

ID - Vers d'autres Tassili, Paris Arthand 1976

ID - les gravures du Sud Onanais, M. CRAPE XVI 1970.

ID - La découverte des fresques du Tassili. Paris Arthaud. 1958.

P.QUEZEL et A. PONS: Premiére étude palynologique de quelques paléo-sub sahariens, Alger IR.S.1957 .

J.ROCHE: L'epipaléolithique marocain. Iisbonne 1963

R.VAUFRY: I'Art rupestre nord-africain. Paris 1939, Institut du paléontologie humaine. Merm 20. 1939,

ID "Prehistoire de l'Afrique, I."le Maghreb"

II Au Nord et a l'est de la Grande fores, Paris Masson 1955 et 1970.

Y et M VIA : Sahara milieu vivant, Paris Hatier 1974

(H.J.) HUGOT: Le paléolitique terminal dans l'Afrique de l'Ouest, BaKground to Evolution in Africa, University of chicago, Press 1965, pp - 529-555.

I.D Les limites méridionales de l'Aterien Se Congrés panaf. de Préhistoria y de Estudio del Cuaternario, 2, Santa Cruz de Tenerife,1966. pp. 95-108.

J.F ADE AJAYI et MICHAEL CROWDER Atlas historique de l'Afrique. Editions du Jaguar 1988 .

COLIN Mc EVEDY: Atlas de l'histoire ancienne traduit de l'anglais par Colette VLERICK, Robert. Laffont 1985.

Antonio Gilman: Neolilhic of Northwest africa. Antiquity.XLVII, n° 192 December 1974 p. 273-281.

I. D - The later prehistory of Tangier, Morocco-Ph.D. Du Harvard Univ. 1974.

Mc. BURNEY C.B.M. The Stoneage of Northern Africa, Penguin Book, 1960.

I. D - Haoua Fteah (Cyrenaica) and the stone age of the Southe-East Mediterranean Cambridge University press. 1 967.

I. D - Libyan role in the prehistory in "Libyan in history", University of Libya, 1968 pp. 1-29.

F.MORI: "I Begni indigeni dell 'Africa romana, in "Africa Romania"Ist. Afr. Rom. Hoepli, Milano 1935.

Ali SAHLI: esquisse pour une préhistoire tunisienne, maison tunisienne de l'edition, 1970.

Leo FROBENIUS: La civilisation africaine, traduit par Dr H. Back et D ERMONT -collection "civilisation et Tradition" Jean-Paul Bertrand Editeur.
Atlas historique: Librairie générale Fnançaise stock, 1968.

:Andre LEROI- GOURHAN et autres:

R. MASON: la Préhistoire nouvelle clio 1-PUF. 3éme edition 1977.

Prehistory of the Transvaal. A record of human activity Johannesbourg. 1962.

Le matin du sahara, **Deux** crânes vieux de 50.000 ans decowverts wrés de Safi sont revurs a S. M. Hassan II, no 3898, deudi 15 juillet 1982 .

A. SMITH: Origins of the Nelithic in the Sahara, in chark, D. and Brandt: From Hunters to farmer, los Angelos and London, 1984.

A.R. WILLCOX: The Rock art of Africa, New york, 1984.

J.L. FORDE-JOHNSTON:

Neolithic cultures of North Africa. Lwerpool, 1959.

H. LHOTE: and Others The art of the stone age, 2nd ed. London, 1970.

٤ – محمد مصطفى بازمه : تاريخ ليبيا الجزء الأول فى عصور ما قبل التاريخ منشورات الجامعة الليبية كلية الأداب بنغازى ١٩٧٣.

٦ – فوزى فهيم جاد الله : بين ليبيا والسودان فى العصور القديمة ، المؤتمر السادس للآثار فى البلاد العربية. طرابلس ١٨–١٩٧١/٩/٢٧ . نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم القاهرة ١٩٧٣ ص ص ٥٣٥ – ٥٥ .

٣ – طه باقر : عصور ما قبل التاريخ فى ليبيا وعلاقاتها بأصول الحضارات القديمة ، ليبيا فى التاريخ المؤتمر التاريخى ١٦–٢٣ مارس ١٩٦٨ ص ص ١–٤٠.

٧ – عبد الرزاق قراقب وعلى مطيط : حضارات ما قبل التاريخ (تونس والبلدان المغاربية) أليف ، الطبعة الثانية منشورات البحر الأبيض المتوسط تونس ماى ١٩٩٣.

٥ – محمد بيومى مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٩) المغرب القديم دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٤١٠ – ١٩٩٠.

٨ – مصطفى أعشيى : جذور بعض مظاهر وحدة أرض المغارب أو المغرب الكبير خلال عصور ما قبل التاريخ ؛ فى مجهودات وإسهامات الأجيال السالفة عبر التاريخ فى بناء المغرب العربى.

الكتاب الأول المحور التاريخي ، شركة الطباعة صوت مكانس ١٩٨٨ ص ص ٦٩–٨١ .

٢ – مصطفى أعشيى : المدخل لتاريخ الحضارة مطبعة الساحل الرباط ١٩٩٥ .

المستوى	العمر المطلق حسب كربون ١٤	التاريخ قبل الميلاد
المستوى الثانى	١٠٨٠٠ ± ٤٠٠	٨٨٥٠
المقبرة	١١٩٠٠ ± ٢٤٠	٩٩٥٠
المستوى السادس	١٢٠٧٩ ± ٤٠٠	٤٨٤٨٠
المستوى الثامن	١٠٥٠٠ ± ٤٠٠	٨٥٥٠
المستوى العاشر	١٣١٤٠ ± ١٥٠	١١١٩٠
المستوى العاشر	١٥٥٠٠ ± ١٥٠	١١٥٦٠
المستوى الحادى عشر	١٤٠٢٠ ± ١٦٠	١٢٠٧٠
المستوى الحادى عشر	١٤٠٣٠ ± ١٦٠	١٢١٨٠
المستوى الحادى عشر	١٥٢٣٠ ± ١٨٠	١٣٢٨٠
المستوى الثانى عشر	١٥٧٠٠ ± ١٨٠	١٣٧٥٠
المستوى الثانى عشر	١٥٤٠٠ ± ١٨٠	١٣٥١٠
المستوى الثانى عشر	١٥٥٠٠ ± ١٨٠	١٣٥٥٠
المستوى الثالث عشر	١٦٤٢٠ ± ١٩٠	١٤٤٧٠
المستوى الرابع عشر	٢١١٠٠ ± ٤٠٠	١٩١٥٠
المستوى الخامس والسادس عشر	٢١١٠٠ ± ٤٠٠	١٩٩٥٠

شكل رقم ٤ التحديد التاريخي لمستويات الحضارة الوهرانية حسب الكربون C - 14 .

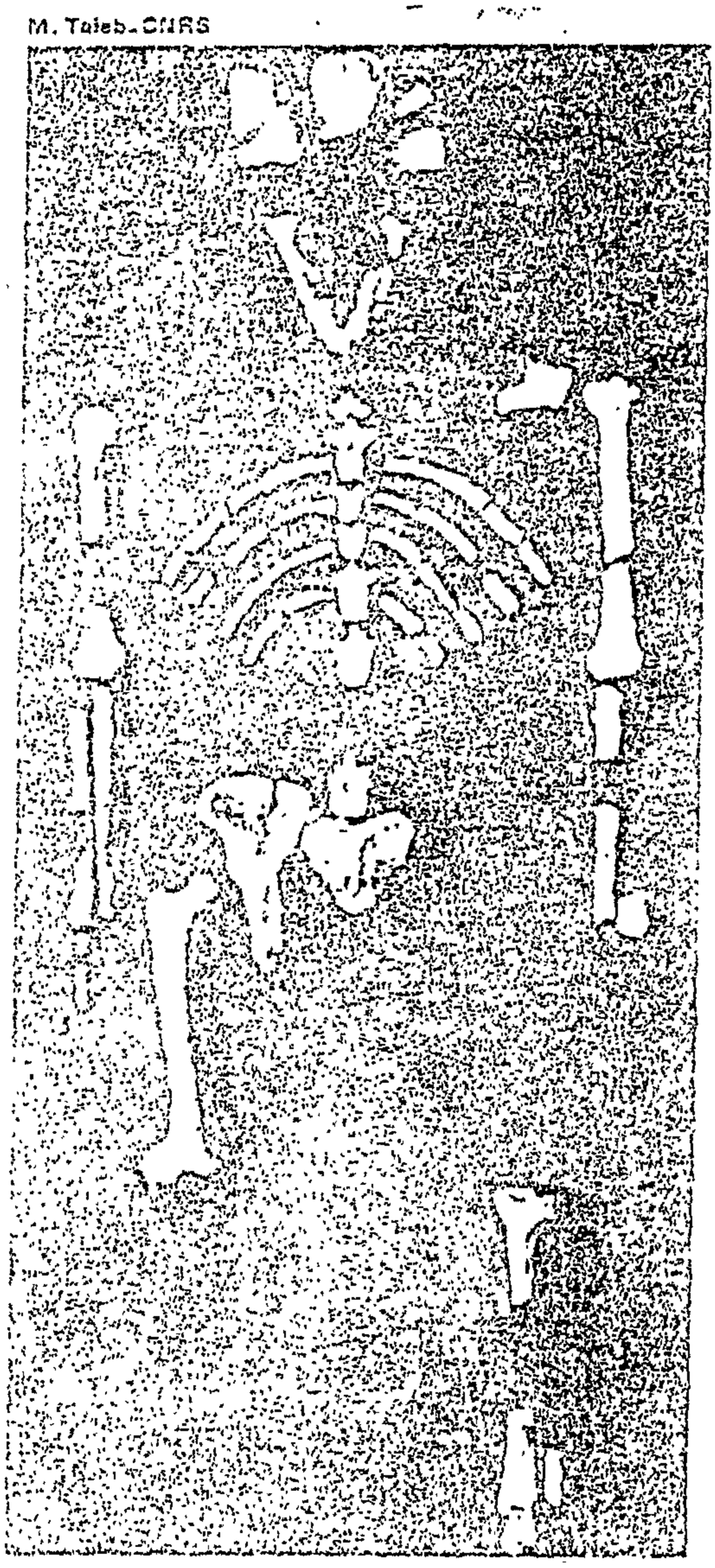

صورة (١) تمثل الهيكل العظمي للوسي (Lusy) المنتمية للأوسترالوبيثيكوس يقدر عمرها بحوالي ٣,٢ مليون سنة

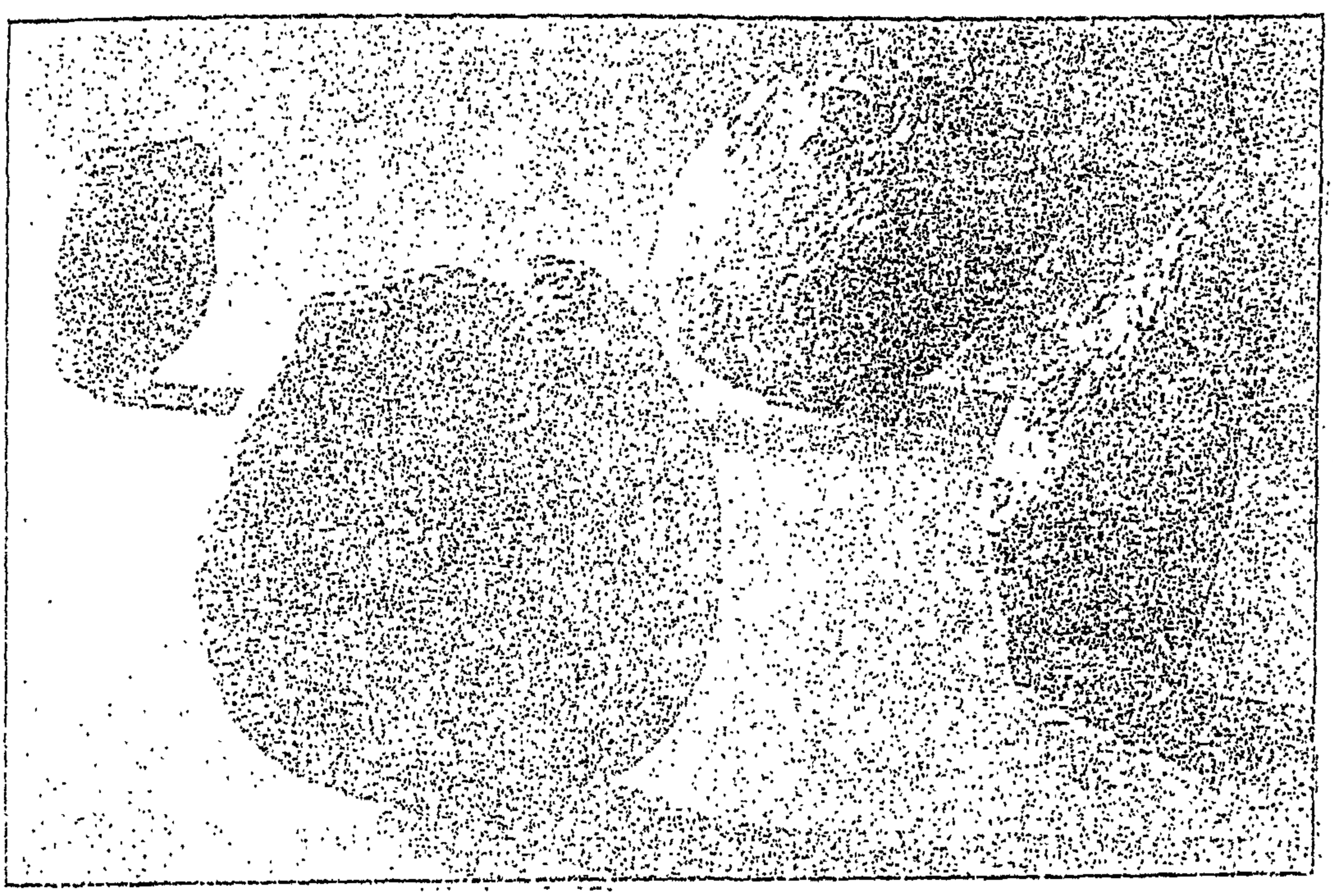

صورة (٢) تبين نماذج من الأدوات الحجرية المنتمية لحضارة الحصاة أو الحصاة المعدلة.
(Pebble culture)

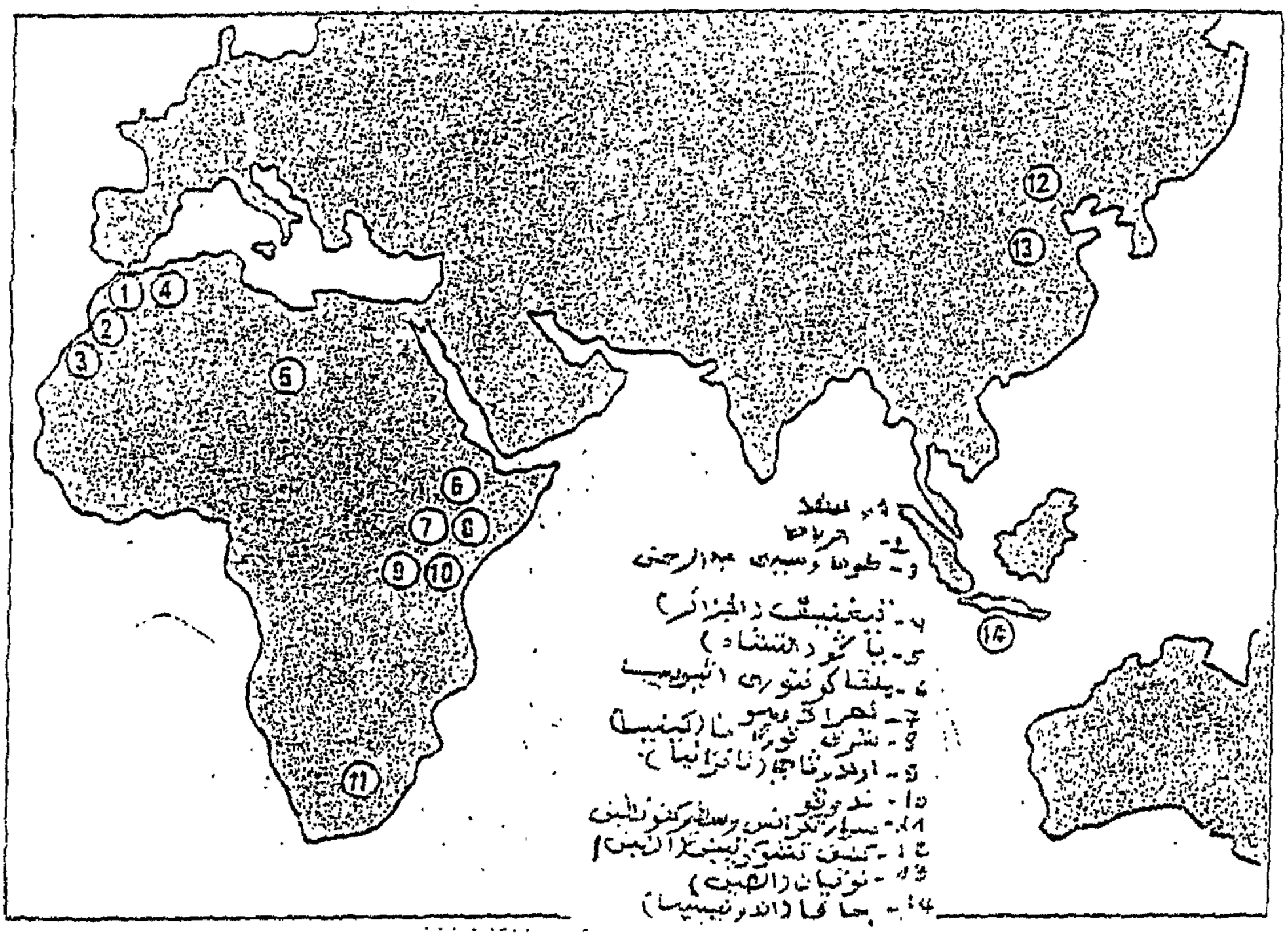

الخريطة (١) تبين المواقع التي تم العثور فيها علي بقايا الإنسان

المنتصب القامة عن Science et vie no. 125 p. 69

الخريطة (٢) توضح مواقع العصر الحجري القديم الأدني وتركزها في شمال أفريقيا وشرقها. بتصرف عن Science et vie no. 125 p. 42

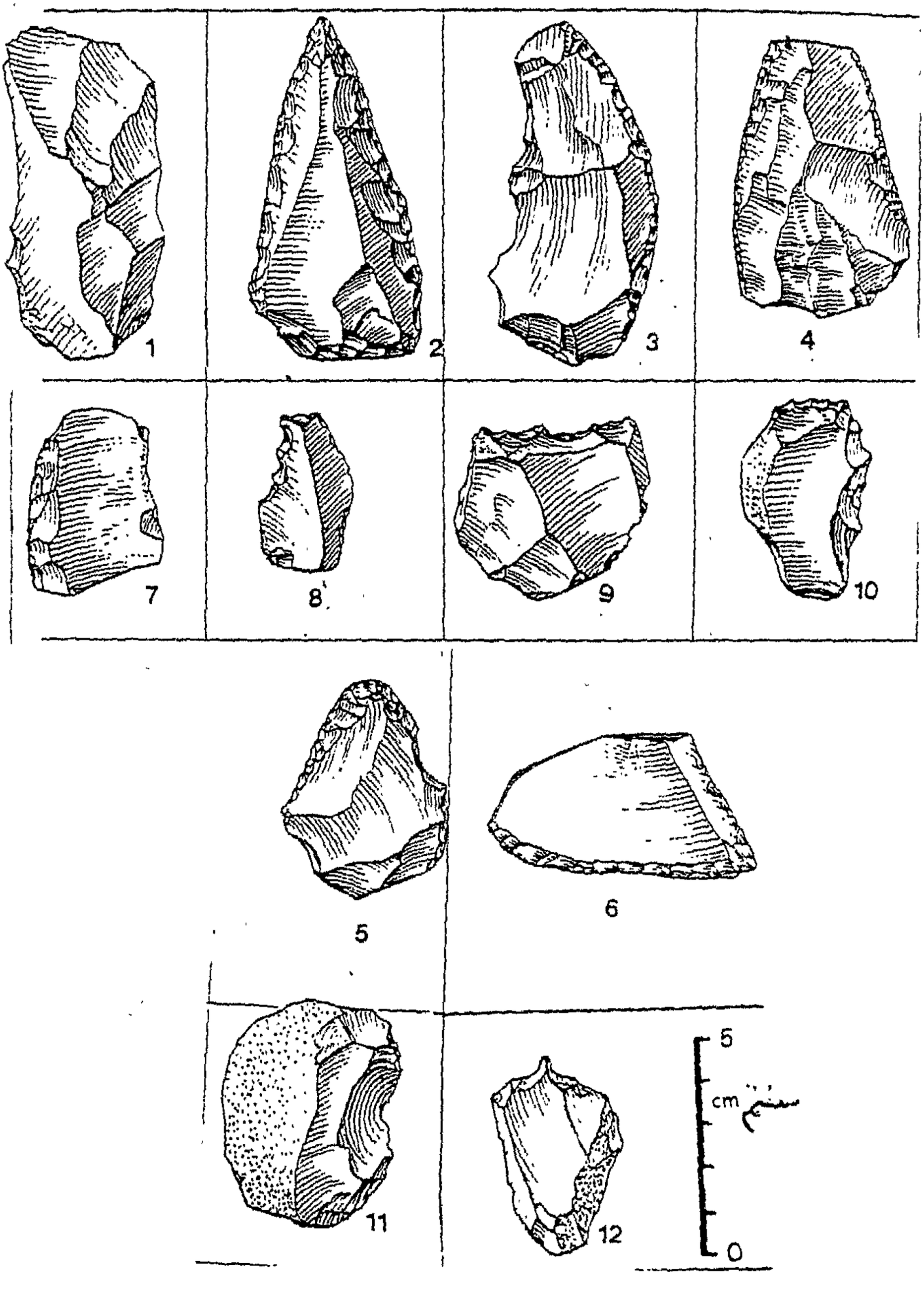

شكل (١) نماذج من الأدوات الحجرية العائدة للحضارة الموستيرية

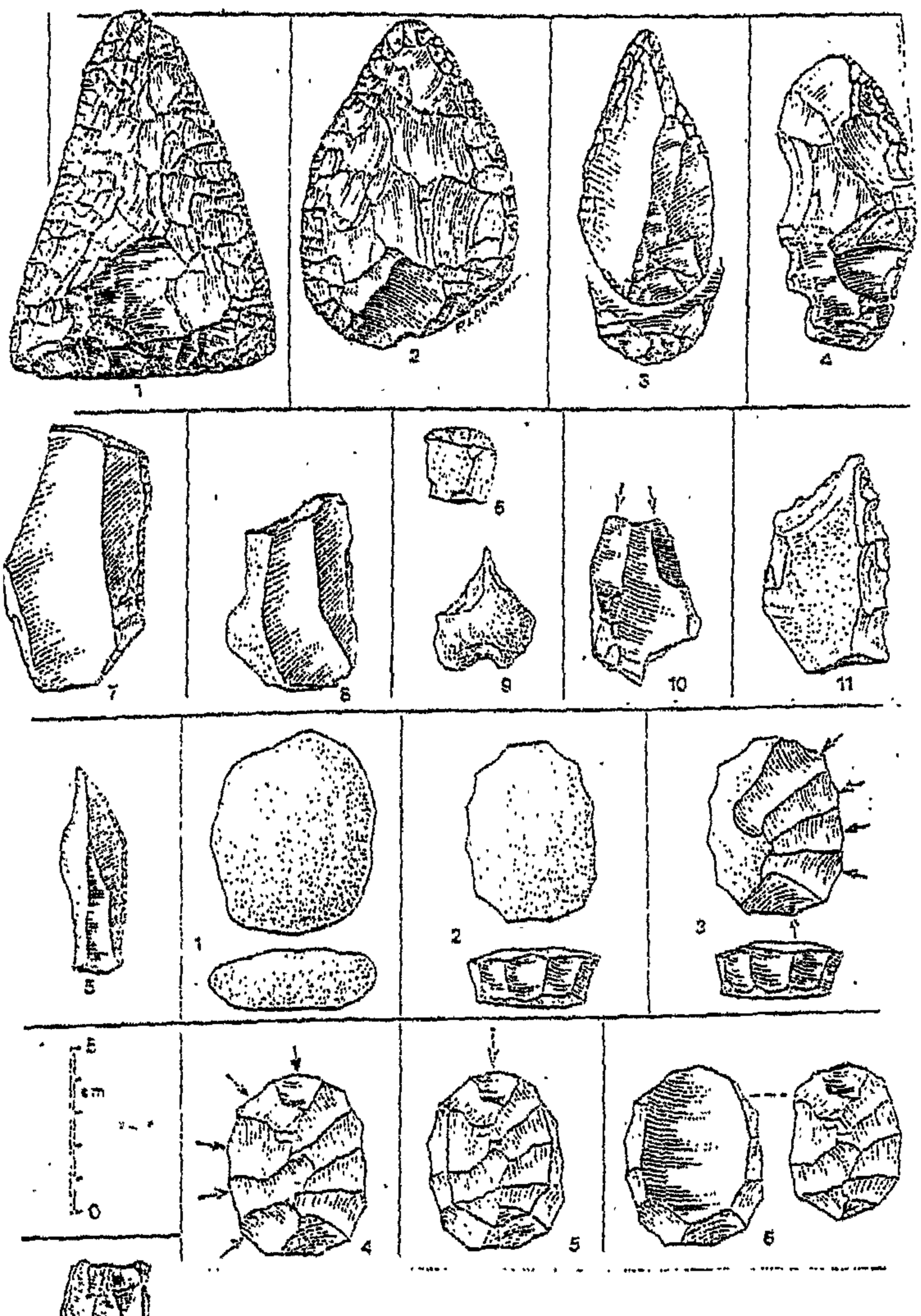

شكل (٢) نماذج من الأدوات الحجرية المعروفة بالموستيرية

عن Bordes, science et vie no. 125 p. 90 - 91

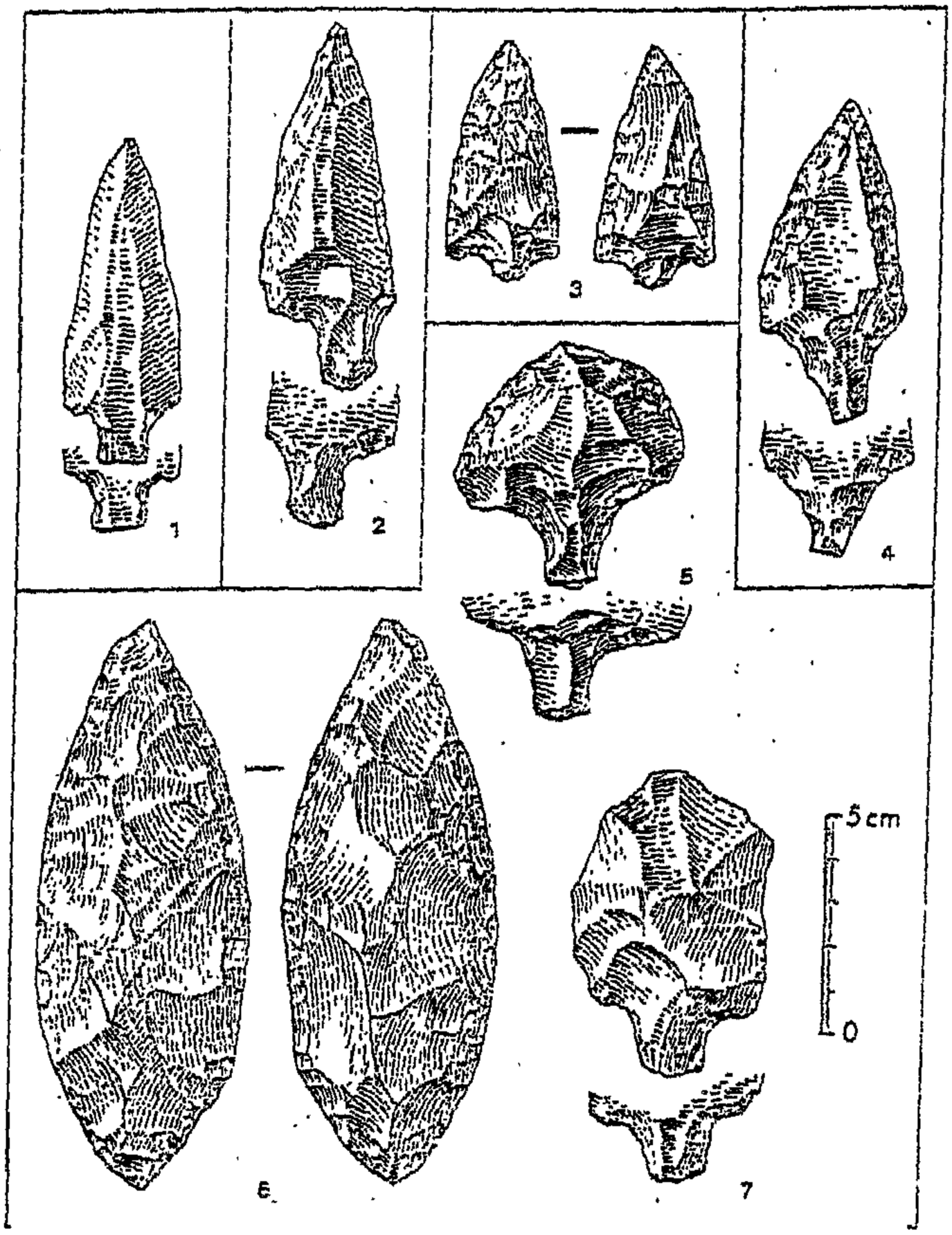

شكل (٣) نماذج من الأدوات الحجرية الخاصة بالحضارة العاطرية

عن Bordes, Science et vie no. 125, p. 95

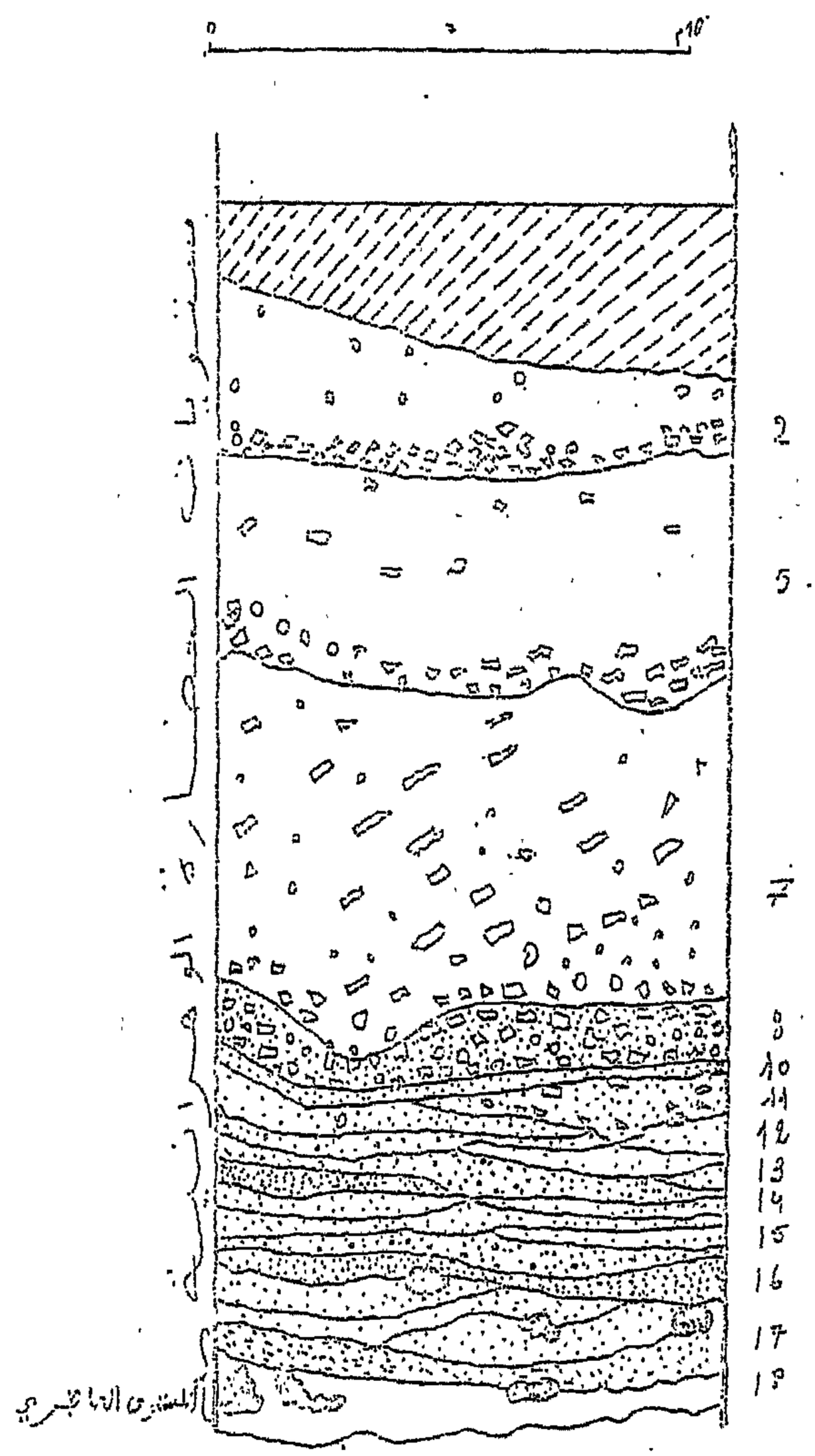

شكل (٤) مقطع للمستويات الوهرانية ونقطة إلتقائها بالمستوي العاطري بتافوغالت من